الفصل الثالث

الإنسان ومفهوم القيمة

" رؤية مستقبلية "

تمهيد

دائماً ما يجد الإنسان نفسه نهباً لتصارع الرغبات والأهواء مما يجد صداه في داخله تمزقاً وقلقاً. ويشعل رغبة مشبوبة في بلوغ التكامل والوحدة كي يتهيأ له السلام مع النفس والعالم جميعاً. كما يتقاسم الإنسان، إحساس بضآلته في هذا الكون الفسيح، وفى الوقت نفسه يشعر بأهمية دوره في سبر أغوار هذا الكون نفسه، ولا يملك في الحالتين سوى قدرته على الفعل ووعيه اللذين يحملانه على تدبير أمر نفسه، والتماس طرق مأمونة في شعاب عالم لا يكترث به.غير أن ظلاً كثيفاً – كما يقول الشاعر "أليوت" – يسقط بين الرغبة والفعل أو بين الأمل والإنجاز. ولعل القيم الإنسانية هي شعاع النور الذي قد يبدد الظلام الذي يكمن داخل الإنسان. فالسؤال عما ينبغي أن يتخذه من مواقف إزاء العالم المضطرب والمليء بالأحداث والثورات، هو سؤال ينتمي إلى مجال "القيم". فقبل كل موقف يتخذه ويختاره أو قبل كل قرار يسأل نفسه: ما هي قيمة ما أعرفه؟ وقيمة ما أفعله؟ وقيمة ما سأحققه من غايات وأهداف؟

ويشارك معظم الفلاسفة في الشعور بما يحيق بالقيم من تهديد مبعثه التحول الاجتماعي الذي نشأ عن التطبيقات العلمية المتزايدة. فإذا كانت العلاقات الاجتماعية شرطاً لوجود القيم الشخصية نفسها، فإن كل صورة من صور المجتمع تفسح الطريق أمام نوع من التهديد لتلك القيم؛ مما أدى إلى الاضطراب والتخبط في مقاييس القيمة ومستوياتها التي تحظى بالقبول. والقيم تقوم في نفس الإنسان بالدور الذي يقوم به الربان في السفينة، يجريها ويرسيها عن قصد مرسوم، وإلى هدف معلوم، ففهم الإنسان على حقيقته يعنى فهم القيم التي تمسك بزمامه وتوجهه. بل هي كذلك تقوم بالدور نفسه في دراسة تاريخ الفكر الإنساني، فهي بمثابة الفروض والآراء التي تقتضى

التحقيق والإثبات؛ ومثل هذه القيم تتجلى في صور متباينة تتفاوت في درجة الإعلان عن هويتها أو التخفي في المذاهب والفروض التي تدور حول فهم الطبيعة البشرية.

ومن سمات القيم في عصرنا الحاضر، أنها متعددة ومتعارضة، وأنها واقعة مع ذلك تحت تأثير الاتجاه نحو توحيد العالم بفضل وسائل الاتصال والنقل والنشر التي ساهم فيها العلم، وأن ثمة شعوراً متزايداً بالثقة في إمكان تحقيقها مهما يكن من تعددها وتعارضها. وأن هناك توافقاً وانسجاماً بين ما يكون وما يرغب فيه، بين الواقع والقيمة. ولم يعد للإنسان ملاذ ينزع إليه بعيداً عن معترك الحياة، بل هناك الاتجاه إلى التأكيد على قدرات الإنسان والتوسع فيها أكثر من التضييق من رغباته والتقليل من مطامحه وقيمه. والإنسان اليوم يجد كل ما ورثه من ألوان الثقافة معرضاً للخطر، فكل شيء يعتوره التغيير في سرعة هائلة تقفز به في طفرات لا يسعفه المنطق المعتاد على فهمها والتنبؤ بها أو ملاحقتها، فيلقى نفسه في مواجهة مع وجوده، ومجتمعه، وعالمه، وعصره؛ فلا تأتلف معتقداته في نسق موحد، وهو لا يفكر أحياناً بالطريقة نفسها التي يتصرف بها.

فإذا كان ثمة خطر يهدد عالم الإنسان وحياته، وأزمة تكاد تخنق وجوده، فإنها لا تُحل بمزيد من التطور في العلم والتكنولوجيا، لأن هذا التطور نفسه يدخل ضمن أسباب الأزمة، كما لا تُحل بمواقف سياسية معينة، لأنها أزمة تتصل بمعنى الحياة الإنسانية ذاتها. ومن ثم فهي تنشد من "الفلسفة" أن تقدم عوناً كبيراً في حل هذه الأزمة. فالفلسفة برفضها التسليم بوجود حدود وضعها لها العلم، لا تستطيع أن تعبرها في بحثها عن "المعنى والقيمة في الحياة"، هي وحدها التي يمكن أن تتعهد بصقل نوع من التكامل لكل جوانب الوجود والحياة. وهذا الالتزام الفلسفي لا يقف إلا على قاعدة من

القيم. ومن هنا جاء اختيارنا لموضوع هذا البحث "الإنسان ومفهوم القيمة" لنبين أهمية "القيمة" في حياة الإنسان، حيث تمثل طابع وجوده وقوام بنيته؛ كما أنها تتجاوز ماهر كائن لتتطلع إلى ما ينبغي أن يكون. وفى ذلك يقوم جوهرها، فهي علو على الواقع وتجاوز الماضي واستشراف للمستقبل. وكان من الطبيعي أن نناقش موضوعات "القيمة" وعلاقتها بالإنسان على ضوء التراث الفلسفي وأدواته، لكن دون أن نلتزم بصبغته التقليدية المثقلة بأمور تبعد بنا عن روح العصر.

الفلسفة ومبحث القيم

مبحث القيم أو "الأكسيولوجيا" [1] يضم مذاهب الفلاسفة في صنوف القيم وطبيعتها ومقاييسها ومنزلتها من الفلسفة، والفلسفة تدرس القيم المطلقة أو النهائية وهى الحق (أو الصدق) Truth والخير Goodness والجمال Beauty، وهنا تثار عدة أسئلة يمكن إجمالها على النحو التالي: هل هذه القيم مجرد أفكار في ذهن الإنسان أم أن لها وجوداً خارجياً مستقلاً عن الشخص الذي يدركها؟ وما هي مقاييس الحق، ومقاييس الخير، ومقاييس الجمال؟ متى نقول إن هذا التفكير صادق، وإن هذا السلوك خيِّر، وإن هذا الشيء جميل؟ ما هي الشروط التي ينبغي توافرها في هذا الشيء حتى نصفه بهذه الصفة أو تلك؟ هذه القيم الثلاث تدرسها علوم فلسفية خاصة هي: الحق (الصدق) موضوعه يدرسه علم المنطق محاولاً أن يصل إلى الشروط التي ينبغي مراعاتها لكي يكون التفكير سليماً. واختلف الباحثون في فهمهم لطبيعة "الحق" وتصورهم للمقاييس التي يمكن استخدامها في التمييز بينه وبين الباطل.

أما الخير، فيدرسه علم الأخلاق في محاولة أخرى للوصول إلى

القواعد التي ينبغي مراعاتها لكي يكون السلوك خيِّراً، ويتخذ البحث في مفهوم الخير – بوجه خاص – صورة اختيار للطبيعة العامة والأنواع الخاصة للفضيلة والسعادة (أو اللذة)، والوسائل المؤدية إلى تحقيق هاتين الغايتين؛ بمعنى اختبار مختلف أنواع اللذة والألم ومعرفة درجاتهما المتباينة، وكذلك تحديد طبيعة الفضائل المختلفة أو صفات الخلق الخيرة وأضدادها، ومعرفة العلاقات المتبادلة بينها [2]. كما يعنى الخير أيضاً، كل فن وكل فحص عقلي، وكل فعل واختيار يرمى إلى خير ما، أي أن خير الإنسان بوصفه موضوع اختيار أو مقصد مبعثه التفكير؛ وهو مختلف عن الدوافع التي لا تعدو أن تكون حسية ووجدانية. ومن هنا كان البحث في "الخير" والمقاييس التي تُضْطلع في التمييز بينه وبين الشر مكانه الملحوظ في التفكير البشرى منذ أقدم العصور، واتسعت شقة الخلاف بين الباحثين في تصورهم لطبيعة "الخيرية" ومقاييسها [3]، فقد رأى البعض أن "الخيرية" تطلق على ما يتصف به كل موجود من الكمال، فكل كائن ينزع بطبعه إلى كماله الذي هو خيرية هويته. كما تعنى "الخيرية" صفة للشخص الإنساني أو صفة الشيء الخارجي، فإذا أطلقت على الإنسان دلت على من يحب "الخير" ويفعله، أو على من يشعر بالآم الآخرين ويدفع الأذى عنهم؛ ويرغب في تحقيق سعادتهم. وإذا أطلقت على الشيء الخارجي دلت على ما يتصف به ذلك الشيء من الكمال الخاص به، أو على ما يجده الإنسان من اللذة والمنفعة في الحصول عليه. و"الخيرية" بهذا المعنى مرادفة للصلاح والطيبة والمنفعة، كقولنا: "خيرية" الفعل أي صلاحه، و"خيرية" النفس أي طيبتها، و"خيرية" العلم أي منفعته [4]. ولا شك أن "الخير" بمفهومه العام يعادل مفهوم "القيمة" أي يهتم بأهداف السلوك أو غاياته المثلى، ويكشف ما ينبغي السعي إليه، أي إلى ما هو "خير" أو ما له "قيمة" .

والجمال، يدرسه علم الجمال ليحدد لنا الخصائص التي ينبغي توافرها في الشيء لكي يكون جميلاً. وعلينا أن نلاحظ أن كلمة "ينبغي" هنا تعنى أننا لا ندرس ما هو كائن، ولكننا ندرس ما ينبغي أن يكون. ولهذا وُصفت هذه العلوم الثلاثة بأنها معيارية Normative. أعنى أنها تحاول أن تضع المعيار أو المقياس الذي تقيس به التفكير الجيد والسلوك الخيِّر والشيء الجميل. ومن هنا تختلف عن العلوم الوضعية التي تصف ما هو قائم أمامها بالفعل فحسب، أو تدرس ما هو كائن أو ما هو موجود دون أن تتخطاه إلى ما ينبغي أن يكون[4]. إن علم الجمال يأخذ على عاتقه القيام باختيار نقدي لاعتقاداتنا المتعلقة بأمور مثل: ما طبيعة الفن الجميل؟ وما الذي يميز الفنان المبدع عن غيره؟ وأي من التجربة يُعد تذوق فني؟ ولماذا كانت التجربة الفنية تجربة قيمة؟ وما هو المعيار الذي يمكن أن نستند إليه في حكمنا على الفن؟ لاشك أن مثل هذه التساؤلات هي ما دعت إلى قيام علم الجمال أو فلسفة الجمال Aesthetics.

ومن هنا، فإن التقسيم الثلاثي للقيم البشرية الكبرى (الحق والخير والجمال) مبنى على نظرة متكاملة إلى الطبيعة الإنسانية الروحية التي لا تكتمل إلا إذا كرس الإنسان حياته من أجل اكتساب الحقيقة في العلم، وتوخى الخير في التعامل مع الغير، وبحث عن الجمال في الطبيعة والفن. وهكذا كانت القيم الثلاث تناظر ثلاثة أنواع رئيسية من النشاط الروحي للإنسان: العلم والأخلاق والفن. وإذا كانت ضروب النشاط هذه جديرة بسعي الإنسان واهتمامه حتى تتكامل شخصيته، فإنها تعبر – في الوقت ذاته – عن ثلاثة مسالك متباينة، لكل منها طابعه الخاص، مع تضافرها جميعاً في تكوين شخصية الإنسان. [5]

موضوعية القيم وذاتيتها

أول خلاف يثار حول مفهوم "القيمة" هو الخلاف المتعلق بمركز "القيم" في العالم، أي الخلاف المتعلق بطبيعة القيم بصفة عامة. فقد تساءل الفلاسفة: هل للقيم وجود موضوعي مطلق؟ وهل هناك "قيم" بالمعنى العام، أم هي دائماً نسبية تبعاً لرضا فرد معين أو تفضيله؟ هل هناك أحكام تقويمية شاملة تسرى على كل البشر في كل مكان؟ وهل هناك شيء ينعقد إجماع الناس على وصفه بـ"القيم" بغض النظر عن زمانهم أو مكانهم أو جنسهم أو حضارتهم؟ أم أن لكل شخص – في نهاية الأمر – نظاماً فردياً من القيم؟ بعبارة أخرى، هل القيم خاصية تنتمي إلى الأشياء ذاتها؟ أم أننا نحن الذين نضفى هذه القيم على الأشياء؟ أي، هل هي موضوعية أم ذاتية؟ مطلقة أم نسبية؟ [6].

يرى أنصار النظرية الموضوعية للقيمة أن "القيم" كامنة في طبيعة الأشياء ذاتها، لا تختلف من فرد لآخر، ولا من عصر إلى عصر، ولا من مكان إلى مكان؛ لكن الذي يختلف فحسب هم الأفراد والجماعات. فقد تمنعهم البيئة أو التربية أو الظروف المحيطة بهم عن إدراك هذه الخصائص التي نسميها بالقيم، بحيث تجد مجتمعاً من المجتمعات أو فرداً من الأفراد لا يرى السلوك الأمين أو الصادق "خيراً" في ذاته؛ وتلك الحالات إن وُجدت فهي لا تدحض الحقيقة التي تقول إن "الخيرية" كامنة في طبيعة السلوك الأخلاقي نفسه. وهكذا يكون الحكم التقويمي في أساسه وصفاً لطبيعة الأشياء، أي للواقع ذاته. ويمكن أن نجد نموذجاً للتصور الموضوعي للقيم لدى الفيلسوف الأمريكي "جوزيا رويس" Royce (1855 – 1916) في فلسفته عن "الولاء" Philosophy of Loyalty، حيث أعطى لكل مظهر من مظاهر الولاء وجوداً موضوعياً قيمياً [7]. وقد رأى أن الولاء في ذاته "قيمة عليا"، بل خيراً أسمى،

بغض النظر عن القضية التي تتخذها موضعاً لولائك؛ فينبغي أن نحدد ما يكون جديراً بولاء الإنسان، والشيء الذي يستحق من الإنسان ولاءه ينبغي أن يكون شيئاً يحتفظ له بذاتيته المستقلة. يقول: "إذا وجدت قضية معينة، وحازت إعجابي، وجذبتني إليها، فوهبت لها نفسي وخدمتها، فإني بذلك أكون قد حققت لنفسي – إذا ما اكتمل ولائي – الخير الأقصى .... ولا يعنى ولائي خيري فقط وإنما خير الآخرين أيضاً، فأنا لا أحصل على الخير، وإنما أمنحه للآخرين .....وهكذا لا يقتصر الخير على الفرد فحسب، وإنما يشمل الآخرين طالما يوجد نوع الولاء للولاء، أي يوجد نوع من التدعيم لولاء الآخرين، إذن لا تُعد القضية خيرة، إلا إذا كانت أساساً عبارة عن ولاء للولاء، وتُوصف بأنها قضية شريرة طالما أنها تحطم ولاء الآخرين "[8].

وقد أكد أنصار النظرية الذاتية في القيمة، وجود تباين في الأحكام التقويمية، وأن هذا التباين يزداد عمقاً وفقاً لاختلاف الأشخاص والعصور؛ ذلك لأن كل قيمة تبدو صادرة – من وجهة النظر النفسية – عن الشعور بالرضا أو الإشباع Satisfaction، فنحن نصف أي شيء يُرضى أو يُشبع حاجة من حاجاتنا أو يساعد على تحقيق مصلحة لنا، بأنه "خير" أو "قّيم" أو "مرغوب" فيه. وأعلى الأشياء قيمة هي تلك التي تشبع حاجاتنا على أفضل نحو، أو تُرضى حاجة من أقوى حاجاتنا، من هذا المنطلق، فإن ميولنا ورغباتنا تشبه لوحة حساسة تكشف لنا عن القيم التي لا وجود لها مطلقاً خارج هذه اللوحة [9]؛ ويترتب على ذلك، أنه كلما فقد الشيء أو الموقف قدرته على إرضائنا، انعدمت قيمته أيضاً. كل هذه الأمور يتخذ منها صاحب النظرة الذاتية شواهد على أن القيمة لا توجد إلا في أذهاننا، فالحكم التقويمي ليس إيضاحاً لصفات كامنة في الأشياء – تجعلها خيرة أو مرغوباً فيها لذاتها – وإنما هو مجرد تعبير عن تفضيل. وهذا التفضيل هو دائماً تفضيل شخصي، هو إعلان عما

أحبه أنا ذاتي وأجده خيراً، وعما يُرضى رغبتي أو مصلحتي الخاصة؛ بل إن أحكامنا تتغير دائماً حتى في مجال التفضيل الشخصي هذا. فلا حاجة – مثلاً – بالمرء إلى أن يكون متشائماً ساخراً لكي يقول إن كل أحكامنا التقويمية لا تعبر فقط عن تفضيل شخصي، وإنما تمثل تفضيلاً مرهوناً باللحظة وحدها، ومعرضاً للتغير دون سابق إنذار. ومن هنا، فإن أي خير هو بالضرورة تجربة لفرد ما، وعندما تتفق مجموعة من الأشخاص على قيمة أية تجربة، فلن تكون لدينا إلا مجموعة من التجارب الفردية التي يُحكم عليها بأنها "خير" [10]. وهكذا، فإن صاحب النظرة الذاتية لا يُعرِّف القيمة بأنها كامنة في الأشياء أو المواقف، وإنما يُعرِّفها بأنها "كل ما يشبع رغبة أو حاجة أو مصلحة". ويعبر "جون ستيوارت مل" J.S.Mill (1806 – 1873) عن هذا الرأي بتأكيده أن السؤال عن "الخير" هو سؤال بخصوص الأشياء المرغوبة، ويضيف أن الدليل الوحيد الممكن على أن الشيء خير هو أن الناس بالفعل ترغب فيه، والسعادة هي الشيء الوحيد المرغوب فيه لذاته بصرف النظر عما يُحتمل أن ينجم عنه من نتائج وآثار [11].

وقد رأى بعض الفلاسفة قصور الرأيين السابقين حول أحكام القيمة، ذلك لأنهم وضعوا المشكلة وضعاً خاطئاً حين تساءلوا: هل القيم موضوعية أم ذاتية؟ ثم افترضوا أنها لابد أن تكون إما ذاتية خالصة أو موضوعية خالصة [12]. إذ إن هناك وجهة نظر أوسع وأرحب تضم الرأيين معاً، فلا تقتصر خيرية الأفعال مثلاً على الأفعال وحدها، ولا تجعلها قاصرة على الإنسان وحده؛ فلا شك أنها تحمل الخاصيتين معاً. فالجوهرة لا تكمن قيمتها في ذاتها، إذ لابد أن تكون الجوهرة قيمة بالنسبة لشخص ما، غير أن خصائصها من ناحية أخرى هي خصائص طبيعية فيها، فنحن لم نخلقها أعنى أننا لسنا نحن الذين جعلناها لامعة ذات بريق.

وقل مثل ذلك بالنسبة للسلوك البشرى، فنحن نختار سلوكاً معيناً يتصف بصفات خاصة ونصفه ب"الأمانة" أو "الصدق" أو "الوفاء"، أو بأنه "خير" بصفة عامة. لكن هذه الخصائص ذاتها هي التي تتحكم في عملية الاختيار، فإذا كان الاختيار يمثل العامل الذاتي، فإن خصائص العقل نفسه تمثل العامل الموضوعي ومنهما معاً يكون السلوك الأخلاقي.

مفهوم القيمة

لفظ "قيمة" من حيث اللغة له عدة دلالات: "قيمة الشيء" قدره، أي قدر قيمته، وقيمة المتاع ثمنه؛ ويقال أيضاً: "قومت السلعة" أي ثمنتها. هذا يعنى أن لفظ "قيمة" يمكن أن يخص أمراً مادياً بالوصف، كما يمكن أن يدل على شيء معنوي يصف حالة من حالات الإنسان وعلاقاته[13]. ولا شك أن اللفظ في الغالب، يحمل هذين المعنيين، إذ إن الاقتصاديين يستعملونه من أجل الدلالة على الثروة المالية التي بواسطتها يتم البيع والشراء؛ وهم يتحدثون عادة عن نوعين من القيم: قيم الإنتاج، وقيم الاستهلاك وارتباطهما بالعرض والطلب، وهم يحرصون على تبين العناصر المكونة للقيمة وهما، كما يقول الاقتصاديون: مادة أولية وعمل. كما يحمل "لفظ القيمة" معنىً إنسانياً عميقاً لا يتحقق إلا بالقدرة على العمل والعطاء، وبالتالي فإن "القيمة" لا تتحقق بالقوة أو القهر، ولكن تتم بالقدرة والإرادة: إرادة عمل تتبعها إرادة حرة.

ولفظ "قيمة" في اللغة القديمة مشتق من فعل Valere بمعنى "ما هو ثمين". ويرى "لويس لافل" (Louis Lavelle (1883 – 1951 أننا نستخدم كلمة "القيمة"عندما نريد تفضيل بعض الأشياء على البعض الآخر، وهذا يعنى أننا نضع عادة تصنيفاً للأشياء ونعلى بعضها على البعض الآخر حتى يبدو بعضها أساسياً والآخر ثانوياً أو فرعياً. ومن الخطأ أن نظن أن هذا التصنيف

يعتمد على طبيعة الأشياء ذاتها لأنه يعتمد في الحقيقة على عملية التقييم نفسها وعلى الحكم الذي نحكم به على الأشياء ذاتها[14]. لا شك أن الإنسان مارس "مفهوم القيمة" في سلوكه منذ ظهوره على وجه الأرض، فموقف التقييم فطرى فيه، ومعاييره – في رأيه – توجه أحكامه على الأشياء، ويمكننا أن ننظر إلى تاريخ الثقافات القديمة لنعرف كيف احتل مفهوم القيمة مكانة بارزة. فثقافة المصريين القدماء تتركز على مفهوم الحياة الثانية، بحيث نلاحظ أن مختلف جوانب حياة الفرد تتأثر بفكرة استمرار وجوده. واتجه الفن إلى تقدير ضرورة الحفاظ على الجسد وتقدمت بذلك صناعة التحنيط، التي ارتبطت بمفهوم الخلود. وكانت الحروب والغزوات وفن التجارة وصناعة الأواني وغيرها من أوجه النشاط، قائمة على خدمة الفكرة القائلة بالحياة الثانية، وحتى الطقوس الدينية كانت من أجل تأكيد قيمة هذه الحياة .

أما الحضارة الفارسية فنجد فيها فكرتي "الخير" و"الشر" تسيطران على مجالاتها المختلفة وتظهر هذه الثنائية في صورة شخصيتين هما: أورموزد Ormazd، وأهريمان Pihriman، في حالة صراع دائم، وهما يمثلان ضمير الإنسان. ولذلك نجد أصحاب هذه الثنائية يتحدثون عن دور الزمان المطلق الذي يولد هذين التوأمين، لأن الزمان هو المحك الأساسي في نشاطهما وهو الذي يؤكد تضادهما. ويرون أن هذا الصراع قام من أجل التعرف على "النور" أي من أجل الظفر بصفاء الروح ونجاة الجسد. ومفهوم القيمة في هذه الثقافة يقوم على تقبل مبدأي الخير والشر اللذين لا يتوقفان لحظة عن إيقاظ ضمائر الناس للبحث عن "النور"، فالضمير الإنساني يمثل حقل نزاع من أجل نصرة مفهوم قيمة الخير. وإذا نظرنا إلى حضارة "الهند" فسنجد أن "مفهوم القيمة" يرتبط بالقوة المقدسة أي "براهما" Brahman [15] وهو مصطلح في الديانة الهندوسية يدل على الحقيقة النهائية في العبادة، وهو اسم محايد من

حيث الجنس، وهو يشير إلى القوة المقدسة الكامنة في طقوس الأضاحي التي يقوم بها رجال الدين ويسمون "البراهمة". ويُنْظَر عادةً إلى رجل الدين البرهمي كما لو كان إلهاً. وهو يُعرف في الكتب المقدسة على النحو التالي: هناك نوعان من الآلهة: الأول الآلهة على نحو ما نعرفهم، والثاني هم هؤلاء البراهمة الذين يعرفون بالفيدا Vades أي الآلهة البشر. وهم يمثلون أيضاً ضمائر الناس. فإذا ما تحقق للفرد أن تطابقت ذاته مع براهما أو الوجود المقدس فإنه – عندئذ – يتخلص من كل الشرور التي تصاحب وجود الظواهر الجزئية. أما "البوذية" فإنها تتميز بنظرة تشاؤمية تقوم على إنكار كل قيمة للحياة وترى أن مفهوم الشر يكمن في مولد الإنسان وما يعتريه من أمراض، في شيخوخته وفى وفاته. ولا تكون هناك قيمة خيِّرة إلا فعل الإنسان الذي يحاول من خلاله التخلص من هذه المساوئ. وهذا الموقف يترتب عليه بعض القيم الخيِّرة مثل التخلص من الأنانية والبعد عن كل ما يهدر كرامة الإنسان .

والحق أن مفهوم "القيمة" لم يحتل مكاناً هاماً إلا منذ زمن يكاد لا يجاوز القرن التاسع عشر، ولعل اكتشافه كان أعظم ما حققه ذلك القرن، غير أن الآراء التي تدور حوله لم تتبلور بعد وما يزال أحد موضوعات الفلسفة. لكن لم تتبين أهمية مفهوم القيمة في تاريخ الفلسفة إلا تدريجياً، ولذلك لا تعثر في الفلسفات القديمة على مذهب أو مدرسة فلسفية تجعل من القيم مشكلتها المحورية [16].

القيمة والحقيقة

الحق أن لدى العقل البشرى ميلاً لا يمكن استئصاله نحو التوحيد بين القيمة والحقيقة، على شرط أن تُفهم القيمة هنا على أنها القيمة العليا للبركة

الإلهية أو للسعادة الروحية. وربما كان في استطاعتنا أن نعبر عن هذه الحقيقة على صورة معادلة فنقول: القيمة = الحقيقة ويمكننا أن نستنتج من هذه المعادلة، المعادلة التالية: اللا قيمة = اللاحقيقة [17].

وليس من الصعب العثور على شواهد تؤيد هذا الرأي، فهناك نماذج مستمدة من مذاهب فلسفية ذات أصل صوفي، سواء أكان هذا الأصل صريحاً أم خفياً. فعند "أفلاطون" (Plato 427 – 347 B.C) مثلاً نجد أن أشد الموجودات حقيقة إنما هي "الصور" أو "المثل"، فالمثل هي الحقائق التي تقابل "اللاحقيقة"، أو "نصف الحقيقة"، ألا وهو "عالم الحس". ولكن المثل أيضاً هي الموجودات الوحيدة القيمة حقاً. وذلك لأن كلا منها إنما هو "كمال" الأشياء التي تشارك فيه. وعالم المثل – في فلسفة "أفلاطون" – يسطع بنور إلهي. وهكذا نرى على الفور أن الحقيقة والقيمة مرتبطان، أو هما متساويتان. ولكن هذا ليس كل ما في الأمر: إذ إن هناك سلماً للمثل، بمعنى أن المثل تتدرج في مراتب يقوم بعضها فوق بعض؛ والصورة التي تقف فوق قمة هذا النظام الهرمي – باعتبارها أعظم الموجودات حقيقة – إنما هي صورة "الخير"، أعنى مثال "القيمة". وتبعاً لذلك فإن هناك توحياً صريحاً بين الأكثر حقيقة، والأكثر قيمة، ولابد أن نلاحظ أنه ليس في فلسفة "أفلاطون" مطلقاً أي سبب منطقي يبرر وضع مثال "الخير" فوق قمة هذا السلم. وربما كان منطق البحث يقتضى أن توضع صورة الوجود (أو مثال الكينونة أي العنصر المشترك بين سائر الأشياء) على رأس السلم. فلم يكن تصرف "أفلاطون" سوى مجرد إقحام صريح للوعي الصوفي في وسط منطقه. أما "اسبينوزا" Spinoza (1632 – 1677) فإنه يسجل صراحة تعادل "القيمة والحقيقة" في صميم مذهبه، فهو يرى أن "الحقيقة" و"الكمال" شيئاً واحداً بعينه. والحق أنه

لا يستخدم كلمة "كمال" إلا كمرادف لكلمة "الاكتمال" أو "التمام"، وبالتالي فإن هذه الكلمة عنده ليست اصطلاحاً "القيمة" [18].

الواقع أن هناك معنيين مختلفين لكلمة "كامل"، أحدهما معنى أخلاقي، في حين أن الآخر معنى محايد أخلاقياً. والمعنى الأخير هو ذلك الذي نجده في بعض التعبيرات المستخدمة كقولنا مثلاً: "دائرة كاملة"، فنحن هنا لا نعنى أن الدائرة فاضلة أخلاقياً، بل نعنى أنها مستديرة تماماً؛ وبالتالي لا يوجد أي مضمون ينطوي على معنى "القيمة" بأي حال من الأحوال. وإذا قلنا: "أن الشيطان شرير شراً كاملاً"، فإن أحداً لن يفهم من هذه العبارة أننا نمتدح الشيطان لخيريته. وإذن فمن الواضح أن "اسبينوزا" حين يوحد بين "الكمال" و"الحقيقة"، فإنه لا يستخدم كلمة "كمال"، إلا بهذا المعنى المحايد أخلاقياً ألا وهو معنى "الاكتمال" أو "التمام". ومع ذلك، من السهل أن نلاحظ أنه حين يتحدث عن "الجوهر" أو "الله" باعتبار أنه كامل، لا شعورياً، يُقحم على هذه الفكرة دلالة قوية من دلالات القيمة. وآية ذلك أن الله عنده – كما هو الحال عند سائر الفلاسفة الذين تتأصل جذور الصوفية في صميم تفكيرهم – إنما هو الغبطة الروحية، وهذه الغبطة هي الكمال، وليس الكمال سوى الحقيقة ذاتها. ونحن نجد أيضاً لدى الفلاسفة المحدثين القائلين بالمثالية المطلقة نموذجاً آخر لهذا التوحيد بين "القيمة والحقيقة". فالمطلق – عند هؤلاء الفلاسفة – هو مصدر القيم، إن لم نقل بأنه "القيمة نفسها [19].

والحق أن المعادلة القائلة بأن اللا قيمة = اللاحقيقة هي المقدمة التي يترتب عليها ذلك المذهب القائل "بإنكار العالم" أو "لا واقعية العالم". وتبعاً لهذه الوجهة من النظر، يكون القول بأن "العالم غير حقيقي" حكماً من أحكام القيمة، لا يعنى سوى أن العالم خلو من كل بركة أو أنه تافه عديم القيمة. والقول بلا حقيقية العالم يرتبط دائماً ارتباطاً خاصاً بنسبة طابع "الجريان

المتصل إلى العالم". ففي مذهب "أفلاطون" مثلاً نلاحظ أن صفة "اللا حقيقية" مرتبطة بصيرورة العالم. وآية ذلك أن الوجود "حقيقي"، أما الصيرورة – نظراً لأنها تشارك في كل من الوجود واللا وجود – فإنها نصف حقيقية. وقد كانت فكرة لا حقيقية الزمان مذهباً مفضلاً بالنسبة للفلاسفة المثاليين، على الرغم من أن المكان والمادة عندهم قد لا يقلان عن الزمان في كونها لا حقيقيان. وإذا كان الطابع الوهمي للعالم يعنى في النهاية تفاهة العالم أو عدم قيمته، فإن انقضاء الأشياء أو عدم ثباتها هو – فيما يبدو لمعظم الناس – العامل الأساسي الذي يسلبها قيمتها [20]. والواقع أن انقضاء الأشياء يحزننا أكثر مما يُسعدنا، وانقضاء الزمان يعنى، بالنسبة إلى الغالبية العظمى منا، فقدان أعزائنا، وحلول الشيخوخة، واقتراب الموت، ومن هنا فإن جريان العالم يتحد في مخيلة البشر اتحاداً وثيقاً "بالشر" القائم في العالم، والتفاهة الباطنة في الأشياء. وتبعاً لذلك، فإنه إذا كانت "اللا حقيقية" تعنى التفاهة أو انعدام القيمة، فإن الزمان والتغير هما الأمران اللذان نستشعر أنهما "لا حقيقيان" .

القيمة وثقافة الإنسان

شغلت مسألة "القيمة" مساحة عريضة من بحث المفكرين والمهتمين بالجوانب الإنسانية والاجتماعية عبر التاريخ، فهي انعكاس للأسلوب الذي يفكر به الأفراد في ثقافة معينة، وفى فترة زمنية معينة؛ كما أنها تمثل نظاماً معقداً يتضمن أحكاماً تقويمية ايجابية أو سلبية – مقبولة أو مرفوضة – نحو الأشياء أو الأفعال أو حتى نحو الأشخاص. ومن ثمَّة تعكس "القيم" أهداف الإنسان واهتماماته الذاتية، كما تعكس حاجات النظام الاجتماعي والثقافي الذي يعيش فيه. وإذا ما حاولنا أن نفرق بين عالم الإنسان وسائر العالم في

كلمة واحدة، فلن نجد سوى القيم. فالإنسان لا يواجه العالم بوصفه موضوعاً مستقلاً محايداً، بل العالم القائم هو عالم بالنسبة إليه، لا يتصل به إلا من جهة ما يعنيه منه، ولا يعرف منه إلا ما يُترجم إلى لغته. وما يغزوه الإنسان من العالم مزود بالثقافة، بل إن الثقافة هي الوجه الإنساني من العالم. وتُصاغ ثقافة الإنسان من مجموع جوانب فاعليته على نحو ما يتضح من فلسفته ودينه وفنه وعلمه، ومن قبل ذلك، في لغته وأساطيره وسحره؛ فهي القيم والمثل السائدة في المجتمع.

والقيم هي طابع وجود الإنسان وقوام بنيته، وبالتالي هي اللغة التي يفهم بها العالم؛ كما أنها تتجاوز ما هو كائن لتتطلع إلى ما ينبغي أن يكون. وتفترض القيم أن ثمة ما يجب رفضه وتجاوزه في الوضع الراهن، ويتضمن هذا خروجاً على الماضي والحاضر مضياً إلى المستقبل. ونخلص من هذا كله، إلى أن "القيمة" ليست أمراً مستقلاً عن الإنسان له وجوده الموضوعي المنفصل عنه، بل هي فاعلية وتجربة حية؛ أو هي الفاعلية الإنسانية في صلتها بالعالم أو الواقع وتفاعلها معه. وانفراد "القيمة" بعنوان خاص وتسمية بعينها، إنما هو محض تجريد ينبغي ألا يغرر بنا فنفصلها عن هذه الفاعلية، إلا إذا كان ذلك بهدف التعمق في الدرس، وفحص دلالتها النوعية في كل موقف من المواقف.

*****

الهوامش

(1) عُرف مبحث القيم باسم "الاكسيولوجيا" *Αχιολογψ* وهى مشتقة من الكلمة اليونانية *Αχιοφ* بمعنى قيمة *ωαλυε* وكلمة *Λογοσ* بمعنى علم. وفلسفة القيم هي البحث عن الموجود من حيث هو مرغوب فيه لذاته، وهى تنظر في قيم الأشياء وتحللها وتبين أنواعها وأصولها. فإن فسرت "القيم" بنسبتها إلى الصور الغائبة المرتسمة على صفحات الذهن كان تفسيرها مثالياً، وإذا فسرت بأسباب طبيعية أو نفسية أو اجتماعية كان تفسيرها وجودياً، وإذا قيل أن قيمة الشيء غير وجوده، قلنا أن معنى القيمة والوجود يعبران عن حقيقة واحدة؛ ولا يمكن تصور أحد هذين المعنيين دون تصور الآخر. وهنا يظهر السؤال عن أي المعنيين أحق بالتقديم؟ هل وجود الشيء مبدأ قيمته، أم أن قيمته هي مبدأ وجوده؟ أجابت الفلسفة "الأنطولوجية" بقولها: إن وجود الشيء مبدأ قيمته، ومعيار كماله وخيريته هو حصوله على الوجود الذي يخصه. أما نظرية القيم فقد أجابت، بأن قيمة الشيء مبدأ وجوده.

لمزيد من التفصيل يمكن النظر إلى : –

Thomas Mautner, **The Penguin Dictionary of philosophy**, Penguin Books, Ltd London,1997,p.586 .

أيضاً: د.جميل صليبا، **المُعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، الجزء الثاني، ص214.

(2) سد جويك، **المجمل في تاريخ علم الأخلاق**، ترجمة د. توفيق الطويل، وعبد الحميد حمدي، دار نشر الثقافة الإسكندرية، 1949، الجزء الأول (من أقدم العصور إلى مطلع العصر الحديث)، ص 70.

(3) Georg Henrik Von Wright , The Varieties of Goodness , London: Routledge & K. Paul, New York, 1963, p.12 .

(4) Perry, R, B, General Theory of Value: meaning and basic principles construed in terms of interest , Cambridge: Haward university press , 1950, pp. 34 – 35 .

(5) د. إمام عبد الفتاح إمام، **مدخل إلى الفلسفة**، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، 1993، ص 147 .

كذلك: د. توفيق الطويل، **أسس الفلسفة**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1979، ص 377.

(6) هنترميد، **الفلسفة أنواعها ومشكلاتها**، ترجمة د. فؤاد زكريا، مكتبة مصر، القاهرة، 1997، ص 261 .

أيضاً: د، إمام عبد الفتاح إمام، **فلسفة الأخلاق**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1985، ص 52 .

(7) Josiah Royce, The Basic Writings ,edited with an introduction by John. McDermott, New York: Fordham University Press , 2005, Volume 2, p.855 .

(8) جوزيا رويس، **فلسفة الولاء**، ترجمة د.أحمد الأنصاري، مراجعة د. حسن حنفي، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، 2002، عدد (337) ص ص 84 – 85.

(9) إميل بريبه، **اتجاهات الفلسفة المعاصرة**، ترجمة د. محمود قاسم، مراجعة د. محمد القصاص، سلسلة (الألف كتاب – 10)، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، القاهرة، 1956، ص 85.

(10) هنترميد، **الفلسفة أنواعها ومشكلاتها**، ص 264 .

(11) Roger Crisp, Routledge philosophy Guidebook to Mill on Utilitarianism, Routledge, New York Fetter lane , London , 1997 , p.52 –

أيضاً: توفيق الطويل، **جون ستيوارت مل**، سلسلة نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف، القاهرة، 1999، ص 107.

(12) د. إمام عبد الفتاح إمام، **فلسفة الأخلاق**، ص 55 .

أيضاً: د. صلاح قنصوه، **نظرية القيمة في الفكر المعاصر**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1981، ص 46.

(13) المُعجم الوسيط، **مجمع اللغة العربية**، مطابع الأوفست، شركة الإعلانات الشرقية، 1985، الجزء الثاني، ص 801 .

– أيضاً: مجد الدين الفيروزأبادى، **القاموس المحيط**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الجزء الرابع، ص 166 .

– يُنظر كذلك إلى كتاب، بيرى، **آفاق القيمة**: دراسة نقدية للحضارة الإنسانية، ترجمة عبد المحسن عاطف، تقديم د. زكى نجيب محمود، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1968، ص 11 وما بعدها.

(14) Milton Rokeach , Understanding Human Values: Individual and Societal, The Free Press , 1979 , p.15 .

– أيضاً: د. نازلي إسماعيل حسين، **نظريات في فلسفة القيم**، مكتبة عين شمس، القاهرة، 1983، ص 5.

(15) د. إمام عبد الفتاح إمام، **مُعجم ديانات وأساطير العالم**، مكتبة مدبولى، القاهرة، المجلد الأول، ص 220 .

(16) د. صلاح قنصوه، **نظرية القيمة في الفكر المعاصر**، ص 11 .

(17) ولتر ستيس، **الزمان والأزل (مقال في فلسفة الدين)**، ترجمة د. زكريا إبراهيم، مراجعة د. أحمد فؤاد الأهوانى، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر، بيروت، 1967، ص 273 .

(18) Spinoza , Ethics: **Oxford Philosophical Texts,** edited and translated by G ,H ,R: Parkinson , Classic Books International , New York , 2009 , p.160 .

أيضاً: ولتر ستيس، المرجع السابق، ص274 .

(19) Clement , G, F, Webb, God and Personality**,** London , George Allen and Unwin LtD , New York , 1919 , p.134.

(20) ولتر ستيس، المرجع السابق، ص278 .

*****